الفصل السابع

الصهيونية

او حركة الانتقال من القومية الدينية الى الدين القومى

١ ـ أصول الصهيونية فى الدين اليهودى (١) :

فى المنفى فى بابل بعد سنة ٥٨٦ ق٠م ، تحول الدين العبرى الى الدين اليهودى ٠ فى الدين العبرى كان الاله اله شعبه المختار فقط يدفعه ويؤازره ويحركه ويعمل له من أجل استيطانه فلسطين والمحافظة على جنسيته وعنصره ، لكنه لم يكن يتدخل فى كثير أو قليل فى حياة الشعوب الأخرى بعد أن تم الاستيطان الأول وقيام مملكة داوود ٠ أما بعد المنفى فقد أصبح الاله يتدخل لا لحماية شعبه فحسب بل لاذلال واخضاع شعوب العالم لشعبه المختار ولاستمرار استعبادهم له على ممر العصور ، ولذلك ، بعد أن كان أولا اله شعبه وقلما كان اله الآخرين ، أصبح بعد المنفى اله الآخرين ، اله البشر أجمع لا لحبه لهم ولرعايته أو هديه لهم ، بل لاخضاعهم لسلطة شعبه وتسهيل استعبادهم واستعمارهم من قبل شعبه الحبيب ٠ وهذا هو حصيلة حركة الاله من القومية الى العالمية ٠

وغير المنفى أيضا مفهوم التعبد من اقامة الطقوس القربانية الى دراسة نصوص الوحى أى التوراة والتدين بتلاوتها المستمرة واقامة

---

(١) راجع كتاب المؤلف بنفس هذا العنوان ، نشر معهد البحوث والدراسات العربية لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٩ ٠

القانون الذى جاءت به ، وحطم المنفى انقسام الأمة اليهودية القديم الى طبقات ثلاث ، الكهنة واللاويين والعامة ، لا تجوز الحركة بينهما الا نزولا من العليا الى السفلى عند نقض الفرد لمقتضيات طبقته ، اذ جعل من الأمة كلها طبقة واحدة ، كلها فى القداسة سواء وان قام فيها كهنة وقفوا حياتهم على دراسة التوراة وحفظها .

الا أن أهم ما أحدثه المنفى من تغيير فى الدين العبرى ، وهو ادخاله عليه فكرة المسيح ، أو المتوج ملكا على اسرائيل بمسحه بالزيت المقدس ، وهى فكرة انتظار من يقوم بقيادة اليهود من منفاهم الى دولتهم يهودا بعمل معجز ، فيعيد لهم مملكتهم الداوودية ويحقق لهم استعبادهم واستعمارهم للبشر وسيادتهم على الدنيا كلها . وقد رأى المنفيون فى شخص كورش الفارسى مسيحا أرسله الاله لينقذ شعبه المهزوم ويحقق له أحلامه الانتقامية والاستعمارية .

وقامت لليهود اثر عودتهم مملكة كانت على جانب عظيم من الضعف فى عالم الامبراطوريات الدولية ، وهزمت هذه المملكة على يد الاغريق ثم على يد الرومان .

ولكن فى كل حين ، لا سيما عندما كانت تجرى الحوادث على عكس ما يشتهون ، تطلع اليهود الى المسيح المنتظر ورأوا فيه بلسما لجراحهم . فبعد أن شتتهم الرومان سنة ٧٠ للميلاد فى أنحاء الجمهورية الرومانية ، تصاعدت أصوات اليهود الى السماء من جديد بأن يرسل الاله لهم مسيحا يخلصهم ويعيد لهم مجدهم التليد . بل وأصبح هذا الدعاء والتطلع النفسانى الذى ينطوى عليه عنصرا مكونا للدين اليهودى . ففى أقدس أوقات السنة فى يوم التكفير أو « يوم كيبور » ، يقول المصلون فى آخر ما يتوجهون به من دعاء « السنة القادمة فى أورشليم » وبهذا التحم الدين اليهودى بالقومية التحاما أصبح يتعذر بعده فصل السياسة عن الدين . بل دخلت السياسة فى الدين بشكل أصبحت هو فحواه ، وعليه أصبح الدين قومية دينية .

وهنالك طبعا من أول هذه النظرية بكاملها كتطلع لمسيح يخلص البشر أجمع من هوة المادة والسلطة والجنس والشر والزمنية ، وتفهموا المملكة التى سيعيد المسيح بناءها كمملكة روحانية يشترك فيها الناس جميعا على حد سواء . أولئك هم الأسينيون اليهود الذين انسحبوا من الأمة اليهودية وتعبدوا فى الصومعات فى تخوم الصحراء ، فمنهم من دخل فى الحنيفية العربية ومنهم من دخلوا فى الدين المسيحى وعرفوا بعد ذلك بالغنوصيين .

ومع انتشار الدين المسيحى ، وهو دين تفهم المملكة كنظام عالمى روحانى لا علاقة له بفلسطين الجغرافية سوى القيمة التاريخية بأنها النقطة التى انطلق منها ، ازداد تشبث اليهود بمادية وجغرافية وسياسية المملكة المنتظرة ، فسماوية الأولى تعادلت مع أرضية الثانية ، وغالى اليهود ، كعادتهم فى كل شىء ، فى قيمة المملكة الأرضية ، بل فى أرض المملكة المادية ، فالذين كانوا يستطيعون سبيلا ، كانوا يوصون بوضع حفنة من تراب فلسطين تحت رأسهم عند دفنهم بعد موتهم . وقام بينهم بين الحين والحين « مسيحيون دجالون » استغلوا سذاجة العامة اليهودية ليحققوا مكاسب شخصية لهم ، وتفجرت عبقرية يهودا هاليفى ، الشاعر الفيلسوف (١٠٨٠ ـ ١١٤٥) عن أسطورة « أن هواء فلسطين مقدس وهذا هو سبب قيام الأنبياء فى تلك البقعة من الأرض . فكما أن أرضا معينة تنتج نبيذا معينا ، تنتج تربة وهواء فلسطين النبوة » !! (٢) .

وبناء على هذا التطلع لمقدم المسيح ، اعتبر اليهود أنفسهم أنى وجدوا أنهم فى اقامة مؤقتة ، الى أن يحين يوم عودتهم الى وطنهم (٣) :

* * *

(٢) Yehudah Halevi, Book of Kuzari, tr. by Hartwig Hisohfeld. New York : Pardes Publishing House, 1946 II, 13, p. 28.

(٣) كذلك رأى موردخاى مانويل نوح (١٧٨٥ ـ ١٨٥١) أن الوطن القومى اليهودى الذى أراد انشاءه فى جزيرة جراند ايلاند فى

٢ ـ أثر التحرير فى الدين اليهودى وفى القومية الدينية اليهودية :

أحدث التحرير أثرا عميقا فى نفوس اليهود ، لدرجة انه زعزع قوميتهم الدينية من أساسها ، وكان لا بد للقومية الدينية من التعارض مع القوميات الأوروبية التى قام التحرير على هدف انصهار اليهود فيها واعتبارهم مواطنين كالمسيحيين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات . وكان من السهل أن يقدم اليهود على الحقوق يستمتعون بها ، ولكنه من الصعب أن يأخذوا بواجبات المواطنية من ولاء واخلاص وعمل للدولة القومية بنفس الاقدام والحماس كالمواطنين المسيحيين . فكانت المشكلة ، وكان لا بد لها من أن تكون طالما أن الدين اليهودى نفسه قومية دينية لا دين فحسب .

وبلغت المشكلة درجة التأزم عندما سأل نابليون بونابرت : « أولئك اليهود الذين ولدوا فى فرنسا وعوملوا كأبنائها ، هل يرون فرنسا كبلدهم الحقيقى ومسقط رأسهم ويشعرون بواجبهم تجاهها ، بحمايتها والمحافظة على قوانينها وبانطاعة والولاء لدستورها المدنى » ؟ (٤)

=

تهر نياجارا تحت اسم أراراط . قال : « انى اذ أدعو اليهود ليجتمعوا تحت رعاية الدستور الأمريكى والقوانين والأنظمة الطيبة الخاصة بهذا البلد أعلن أن الملجأ الذى أنوى انشاءه ملجأ مؤقت . فاليهود لن يتخلوا أبدا عن استرجاع وطنهم التقليدى . ولن يتركوا الأمل فى العودة اليه ، بل ويجب عليهم أن لا يتخلوا وان لا يتركوا »

انظر : Isaac Goldberg : Major Noah : American – Jewish Pioneer. New York : Kopf, 1937, p. 194. Joseph L. Blau and Salo W. Baron, The Jews of the United States, 1790 – 1840 : A Documentary History. New York : Columbia University Press, 1963, III, pp. 894–905.

(٤) Howard M. Sacher, The Course of Modern Jewish History. Cleveland World, 1958, pp. 60-65. Gunther Plaut, The Rise of Reform Judaism. New York : World Union for Progressive Judaism, Ltd., 1963, p. 71.

ولو حذفت كلمة « فرنسا » من السؤال ووضع محلها « المانيا » و « هولندا » و « انجلترا » و « بلجيكا » و «ايطاليا » وغيرها من بلدان اوروبا لانطبق السؤال ذاته على يهود جميع هذه البلاد ، ولكن سؤالا لا بد لليهود الأوروبيين من مواجهته .

وكان جواب معظم اليهود فى غرب أوروبا لهذا السؤال ايجابيا ، اذ غير التنوير والتحرير مفهوم الدين عندهم من كونه قومية دينية الى كونه دين شخصى كالملل البروتستانتية المختلفة لا يتعارض مع الولاء للقوميات والدول الاوروبية . وقال لودفيج فيليبسون فى هذا الصدد : « سبق أن حاول اليهود أن يخلقوا من انفسهم أمة ودولة مستقلة . أما الآن ، فهدفهم هو مشاركة الأمم الأخرى فى توصلها الى أرقى مراحل التطور الاجتماعى . فواجب العصر الجديد هو خلق مجتمع بشرى يضم جميع شعوب العالم بشكل عضوى . وكذلك ، ليس من واجب اليهود جعل انفسهم أمة ومن دولتهم كيانا سياسيا مستقلا ، انما واجبهم الحصول على قبولهم فى الأمم كاعضاء فيها عاملين فى مجتمعاتها على قدم المساواة مع ابناء تلك المجتمعات » (٥) .

لقد اقتنع يهود أوروبا بأن دينهم يطالبهم بأن يجعلوا من انفسهم لا قومية دينية بل جمعية دينية يشتركون فيها للتعبد والتدين الشخصى ، وان اشتراكهم فى مثل هذه الجمعيات الدينية لا يتعارض مع اشتراكهم فى المجتمع القومى والسياسى فى كل دولة من دول أوروبا . وقال داوود ماركس ، حاخام كنيس لندن الغربية سنة ١٨٤٥ مؤكدا عدم التعارض بين الولاءين : « نعم نحن نتطلع الى عودتنا الى يهودا ، ولكن فقط فى ذلك الوقت الذى يتغير فيه العالم كله . عندما تنصهر الأمم فى بوتقة سياسية واحدة ، وينقلب نظامها الحاضر راسا على عقب .

---

(٥) راجع كتاب بلاوت السابق ذكره ، صفحة ١٣٦ ، حيث ينقل كلمات فيليبسون من مقال (What is Judaism?) من مجلة (Allgemeine Judenthums) Zeitung des, I, p. 2.

فالى أن يحدث هذا ، ولا بد لمثل هذا الحدث من أن يتصف بما يتصف به قيام الساعة ، يعلنها اليهود بصوت واحد بأن لا رغبة لنا فى أى بلد سوى مسقط رأسنا . فالى البلد الذى ولدنا فيه نولى ولاءنا ويتوقد شعورنا الوطنى وحماسنا القومى اللذان لا يقلان اخلاصا وحرارة عن اخواننا المواطنين الانجليز غير اليهود » (٦) .

وقد مر بنا كيف عالج جايجر ، مفكر الاصلاحيين الأكبر ، هذه المشكلة (٧) .

وقد تبع هذا التعديل فى الولاء اليهودى تعديل لاهوتى . اذ كان اليهود يؤمنون بأن تشتتهم فى العالم كان جزاء على ما ارتكبوه من اجرام ، وأنه لا بد منته عندما يقتنع الاله بتكفيرهم عن خطاياهم . أما الآن ، فهم ظنوا أن تشتيتهم كان أمرا لا بد منه ليتسنى لهم تحقيق رسالتهم فى جميع الأمم . فهو خير لا شر . ورسالتهم ليست الا نشر التعاليم التوحيدية والأخلاقية فى العالم ، وكذلك ، رأوا ضرورة اعادة تأويل نظرية المسيح وذلك بتجريدها من معناها السياسى وتأكيد المعانى الروحية فيها كما فعل الآسينيون والمسيحيون من قبل ، يقول فيليبسون فى هذا الخصوص : « نحن لا نفهم وعود الله بالمعنى الضيق المشبع بالخاصية لاسرائيل ، فالمسيح لن يبعث ليخلص اسرائيل فقط ويؤتيها الحكم على بقية البشر ، كلا ، نحن نركز آمالنا على ما قاله الأنبياء بأن المسيح سيضطلع بواجب أكبر واعظم وأجل بكثير من هذا ، ألا وهو واجب تخليص

---

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٧ حيث ينقل كلمات ماركس من مجلة :
Jewish Chronicle, 1845, 12, p. 27.

(٧) Abraham Geiger, Das Judenthum und seine Gerchichte. Breslau : Schletherschen Buchhandling, 1865 – 1871, p. 9.

البشر أجمع وتوحيدهم فى ملك واحد قائم على عبادة الله الحق » (٨) ٠ وفى نفس الصدد ، قال جايجر : « المسيح الذى سيقود الاسرائيليين الى فلسطين ليس منتظرا ولا مرغوبا فيه من قبلنا ٠ نحن لا نعرف وطنا غير الوطن الذى ننتمى اليه من حيث مولدنا ومواطنيتنا » وجاء هذا القول فى وثيقة « برنامج وتصريح لليهود الألمان ولأصدقاء الاصلاح الدينى » الذى أعلن فى فرانكفورت سنة ١٨٤٣ كمانيفستو حركة الاصلاح اليهودية ، وزاد مؤتمر فرانكفورت للربابنة سنة ١٨٤٥ نفس المبدأ ايضاحا وتأكيدا عندما قرر : « يجب أن تعطى فكرة انتظار المسيح مقاما بينا فى الصلوات اليهودية ، ولكن يجب أن تحذف كل اشارة الى أرض الأجداد والى اعادة بناء المملكة اليهودية فيها » (٩) ٠

وكذلك أيضا قال شمشون رفائيل هرش ، زعيم الأورثوذكس ، اذ نقض فكرة القومية اليهودية وأول الدولة اليهودية القديمة تأويلا غير سياسى ففى رأيه ، أن الدولة والأرض لم تكن سوى المادة التى أدى اليهود بواسطتها رسالتهم الروحية ، « ان الأرض والدنيا لم تكونا فى يوم من الأيام عروة اتحاد اسرائيل » (١٠) ٠

وقد حرص هرش كل الحرص على اجتناب كل ما من شأنه مناقضة مساهمة اليهود فى القوميات الأوروبية ، وهو القائل : « ان واجبنا هو أن نشترك الى أقصى حد ممكن مع اخواننا المواطنين فى كل دولة فى بناء الدولة التى تتبنانا ، وفى خدمتها والولاء لها ٠ واجبنا أن لا ندع

---

(٨) Samuel Holdhein. Neue Sammlung Judischer. Predigten Berlin, 1852, 55, 3 Volumes, I, p. 156. Moses Guttman. Literaturblatt des Orients, II, 9. 1. 1844 p. 22

نقل هذا الكلام من مصدر بلاوت السالف الذكر ، صفحة ١٤٣ ٠

(٩) راجع كتاب فيليبسون السابق ذكره ، صفحة ١٦٨ ، ٢٥٥ ، ٤٩٢ ٠

(١٠) راجع كتاب هرش السابق ذكره ، التحرير السادس عشر ، صفحة ١٦١ ٠

أى مجال لانفصالنا فى أية صغيرة عن الدولة التى ننتمى اليها » (١١) . وفسر هرش رسالة اسرائيل على انها رسالة روحية عالمية مؤكدا أن هذه كانت رسالة الجالوت أو المنفى وأن المنفى لا يزال وسيبقى قائما حتى القيامة .

* * *

٣ ـ نشأة الفكرة الصهيونية :

يتبين مما تقدم أن مفكرى اليهود من اصـــلاحيين وأورثوذكس ضحوا بفكرة القومية الدينية فى سبيل احراز مكاسب التحرير وفى سبيل انصهارهم فى القوميات الغربية وتقبل هذه القوميات لهم . الا أن هذا الحل ليس وحيدا للمشكلة . فالصهيونية ، وان كانت جذورها تمتد الى العصر البطريكى فى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد (أى عصر ابراهيم) ، هى ولا شك محاولة معاصرة لايجاد حل للمشكلة اليهودية كما تطورت عبر التاريخ الأوروبى الذى استعرضناه فى هذا الكتاب . فالحـــل الصهيونى باختصار هو أن يكون لليهود مجتمعهم ، ويكون لهم حقوقهم وواجباتهم ضمن دولة يهودية مستقلة . فيكون لهم الدين والقومية والحرية والاستقلال مجتمعين .

ولكى نفهم نشأة هذه الفكرة ، لا بد لنا من ربطها بعجلة التاريخ الأوروبى ، اذ لا ينكر أنها جاءت كرد فعل فى ذلك التاريخ لما كان يتحرك فيه من قوى وتيارات (١٢) . علينا أن نذكر أن تحرير اليهود

---

(١١) المرجع ذاته ـ انظر أيضا :

S.M. Dubnow, Natienalism and History : Essays on old and New Judaism, ed. Koppel S. Pinson. Philadelphia ; Jewish Publication Society 1958.

(١٢) Arthur Hertzberg, ed., The Zionest Idea : A Historical Analysis and Reader. New York and Philadelphia : Meridian Books and Jewish Publication Society, 1960, p. 23.

وتمتعهم بكافة الحقوق التى جاءت بها حركة التنوير الى الأمم الأوروبية ، لم يتحقق بالفعل ، أو على الأقل لم يتحقق كله . ففى نفس الوقت الذى كان يقوم به المفكر اليهودى باعادة بناء هيكله حتى يتسنى له التعايش مع التنوير والتحرير كان العالم الأوروبى ينسحب من التنوير وينقض مفترضاته شيئا فشيئا . فالعقلانية ابتدأت تتحول فى أوروبا الى لا عقلانية ، وحرية الرأى الى تسلط فكرى جديد ، ومدنية العصر الحديث الى نوع مجدد من مدنية القرون الوسطى ، وقد بدا هذا التحول واضحا فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، ولا يزال يسرى الى يومنا هذا ، وتبع هذا التحول الفكرى تحول سياسى أدى الى اضطهاد اليهود من جديد والى قيام نظريات قومية متطرفة مثل نظرية « الدم والأرض » التى لا تسمح طبيعتها بقبول اليهود . وهذه اللاعقلانية والقومية العنصرية اجتاحت جميع الدول الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

بل أكثر من هذا ، نشأت هذه القوميات المتطرفة فى أواخر القرن الثامن عشر فى قطاعين أوروبيين ، هما البلقان وبولندا ، وهما القطاعان اللذان شاهدا تنازع أكثر من قومية واحدة فيهما وتفسخ السكان بين الواحدة والأخرى . وفى الواقع ، نشأ يهود الكالاى (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨) أول الصهيونيين بالرغم من أنه غير معروف نسبيا ، فى صربيا فى البلقان حيث شهد النزاع العثمانى ـ اليونانى ـ الصربى . ومع أنه كان أورثوذكسيا يؤمن بمعجزية الخلاص ، رأى أن لا مانع من التحضير لهذه المعجزة بالاستيطان فى فلسطين من قبل اليهود (١٣) . وعاصر هذا الصهيونى المتقدم زفى هرش كاليشر (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) المولود فى بوزن فى بولندا حيث شهد صراع الروس والألمان والبولنديين ، وهو أيضا القائل بضرورة تعاون الحكومات

---

(١٣) المرجع السابق ، صفحة ٢١ و ١٠٧ . راجع أيضا فصل : (Jewish Ethnicism) فى كتاب : (Salo W. Baron) وعنوانه: Modern Nationalism and Religion. New York : Harper, 1947, pp. 213-249.

الأوروبية فى سبيل اعداد المسرح لتحقيق المعجزة الالهية ، معجزة عودة اليهود وقيام دولة داوود فى فلسطين (١٤) . وقد ألف كتابا أسماه « داريشات صهيون » (سعيا وراء صهيون) سنة ١٨٦٢ ، حاول فيه اقناع الأورثوذكس المتعصبين لمعجزية الخلاص بضرورة السعى الانسانى والسياسى والتمهيد المادى لتحقيق المعجزة . وكأنه يقول بأن المعجزة ليست معجزة وأن كل ما هو مطلوب هو الدأب على الهجرة والتنظيم (١٥) . وكاليشر هو أول من دعا من العصريين الى الاستعمار الزراعى فى أرض فلسطين وأسس فى فلسطين تحقيقا لهذه الفكرة مستعمرة نيتر شرقى يافا سنة ١٨٧٠ .

يبدو تأثر كاليشر بالقوميات المتطرفة ـ بل المقاتلة ـ الأوروبية واضحا فى قوله : « لم يضحى أهل ايطاليا وغيرها من البلاد فى سبيل وطنهم بينما نقعد نحن اليهود عن أية تضحية ؟ هل نحن دون أولئك الناس الذين يضحون بكل غال ونفيس ، بالمال والحياة ، فى سبيل وطنهم وقومهم؟ ألا يجدر بنا الاعتبار بمثل الطليان والبولنديين والمجريين الذى ضحوا بممتلكاتهم ونفوسهم فى سبيل تحقيق استقلالهم القومى ؟ بينما نحن ، أبناء اسرائيل ، نتمتع بملكية أقدس الأراضى ، ولا حراك لنا ولا حيلة » ؟ (١٦) .

وقام بعده بيريتز سمولينسكين (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) يدعو اليهود الى التنازل عن مكاسب التحرير فى روسيا عندما شاهد الاضطهادات الشنيعة التى تعرض لها اليهود فى الثمانينات من القرن الماضى ، بينما كان قبل ذلك يدعو الى تفهم القومية اليهودية كحركة روحية بحتة ، لا سياسة

---

(١٤) راجع كتاب : (The Zionest Idea) صفحة ١٠٩ وما يليها .

(١٥) المصدر السابق ، صفحة ١١١ ، ١١٣ .

(١٦) Israel Cohen, The Zionest Movement. New York : Zionest Organization of America. 1946, p. 54.

ولا أرض ولا مادة ولا عـودة لفلسـطين فيها (١٧) • أما بعد الثورات الاضطهادية فى بلده ، أخذ يردد : « لن تقبل اليهود أية أرض فى هذا الكون سوى فلسطين أرض اسرائيل المقدسة • فهنالك فقط يمكن لليهود تحقيق السلام والطمأنينة » (١٨) •

ويشهد على نفس التطور فى عقلية يهود أوروبا تاريخ حيـاة الزعيم الصهيونى ليو بينسكر (١٨١١ ـ ١٨٩١) لقد أعلنها بينسكر مرارا أنه مع التنوير والتحرير ، وكان قد تعلم الطب وربى تربية روسـية محضة • وكان أبلى بلاء بطوليا فى حرب القرم فى خدمة الجيش الروسى حتى أنه حصل على ميدالية شرف من القيصر • وكان يدعـو الى ترويس اليهود وانصهارهم فى جسم الأمة الروسية بوضوح وتأكيد • وأسس سنة ١٨٦٣ جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا بقصد تسهيل ترويسهم حتى ثورة ١٨٧١ التى اضـطهد فيهـا الروس اليهود وقتلوهم ، لم تزحزح عقيدته بأن الانصهار هو خير طريق لسعادة اليهود • أما ثورات ١٨٨١ فانها ، بالنظر الى اشتراك الشـعب الروسى برمتـه فى تقتيل اليهود وبصورة خاصة بالنظر الى اشتراك الطبقة المثقفة والحاكمة فى أعمـال الاضطهاد ، غير بينسكر وجهته •• تنحى عن عضوية جمعية نشر الثقافة وراح يبحث عن حل آخر لمشكلة بنى جنسه ، ولم يكن بينسكر يدعو فى ذلك الوقت الى الاستيطان فى فلسطين اذ اعتبر أن أية أرض أخـرى مقبولة ، وعن فكر بينسكر هـذا نشـأت جمعية « حبة صهيون » التى آزرها الغنى روتشيلد والتى أخذت تشترى الأراضى فى فلسطين لتوطين اليهود فيها (١٩) •

---

(١٧) راجع كتاب : (The Zionest Idea) صفحة ١٤٥ و ١٥١ ـ ١٥٢ •

(١٨) المصدر السابق • صفحة ١٥٢ •

(١٩) المصدر السابق • صفحة ١٧٩ ـ ١٨١ • وفيـه نص الوثيقة (Auto Enancipation) التى خطها بينسكر • راجع أيضا كتاب كوهين السالف الذكر (The Zionest Movement) صفحة ٦٥ وما يليها •

والواقع أن اللاسامية الأوروبية الناتجة عن الرومانطيقية المغالية كانت تتقدم أكثر من الفكر اليهودى القائل بانصهار اليهود فى القوميات الأوروبية والمعاصرة . وسارع فى تقدم اللاسامية أن اليهود جنوا ثمرات هائلة وبسرعة مذهلة من تحريرهم فما كادوا يتحررون ويقبلون فى الأوساط التجارية والمدنية والسياسية الا وبزغوا فى كل حقل وجمعوا السلطة والحكم والمال والجاه فى أسرع من البرق . فبينما تفشت الانفرادية بين المسيحيين ، دخل اليهود المعترك الاجتماعى والسياسى والميدان الاقتصادى كحزب واحد له قوميته المختلفة وبوعى جماعى لم يتوفر لأية فئة أخرى ، وكان من الطبيعى أن يذهل المسيحيون لهذه المكاسب السريعة وأن يتنكروا لليهود ويناصبوهم العداء . وبما أن الوعى العمالى كان قد بدأ يتأهب للثورات الاشتراكية والصناعية ، كان من السهل أن يتخذ هدفا له الثراء الفاحش الذى جناه اليهود فى التجارة والصناعة .

هذا سبب لانتشار اللاسامية . والسبب الثانى هو أن أحلام القرن الثامن عشر الانسانية أخذت تتحطم وتتبدد . فبعد الثورة الفرنسية ، خاب أمل الأوروبيين بتحقيق الجنة على الأرض على أسس التنوير ، فانسحبوا من العالمية الى القومية الضيقة ، ومن الديموقراطية الى الدكتاتورية ، ومن رؤى المستقبل الى الحلم بالماضى وتمجيده ، وأخذت نظريات القومية تأتى تباعا وكلها مغالية فى رومانطقيتها . ولم يكد يعطى هيجل نظريته بأن « الدول هى فكرة الروح المطلق عندما تظهر متسمة فى الارادة الانسانية والحرية » (٢٠) . حتى راح هاينرميش فون ترايتشكة يقول « ان نشوء وتطور الدولة ليس

---

(٢٠) George W. F. Hegel, Philosophy of History, tr. by J. Sibrte New York : Willy Brook Co., 1944, p. 47.

الا الشكل الخارجى الذى تلبسه روح الشعب على نفسها » (٢١) ٠ والفرق بين الموقفين هو الفرق بين النظرية القومية المبنية على العقل والنظرية القومية المبنية على عبادة الدولة ٠

وفى النمسا حيث لا يمكن قيام القومية على وحدة الجنس ، قال كارل رينر ان القومية هى وحدة المصير والثقافة (٢٢) ٠ وفى فرنسا ، عرف رينسان القومية كاستفتاء يقوم به الشعب يوميا ولكنها ليست الا استفتاء ، أى أن القرار الجماعى قرار عرفى ٠ وقال فوستل دى كولانج « القومية الحقة ليست حب الأرض ، بل حب الماضى وتمجيد الأجيال السالفة » (٢٣) وعلى هذا التطلع الى الوراء بنى موريس باريس نظريته فى القومية الأحدية (Integral Nationalism) وقال : « نحن ثمرة كيان جماعى ينطق فينا ، لندع تراث الأسلاف يستمر فينا ولنجعل من انفسنا أبناء نشيطين وصادقين ملتحمين مع أجدادنا كيما نشكل قوما واحدا مدى العصور » (٢٤) ٠ ففى مثل هذه النظريات القومية المتطرفة لا ثمة محل لليهود ٠ وكيف لهم أن يجدوا لأنفسهم مكانا فى تاريخ قديم ومتوسط لم يدخلوه ولم يتأثروا به أبدا ؟

وفى سنة ١٨٩٤ جاءت قضية الفريد دريفوس ، الضابط فى الجيش الفرنسى ، التى أحدثت تغيرا جذريا فى نفس الشاب تيودور هرتسل

---

(٢١) Heinrich von Treitschke. Politfcs, tr. by Blanche Dugdale, et al. London : Constable, 1916, I, p. 12.

(٢٢) راجع مقال : Salo W. Baron, (The Modern Age) فى كتاب : Leo W. Sohwarz, ed. Great Ages and Ideas of the Jewish People. New York : Modern Library, 1956, p. 355.

(٢٣) نفس المصدر ٠

(٢٤) Maurice Barres, Scenens et doctrines du Nationalism. Paris : Plon-Nourrit, 1925, I, p. 94.

الذى جاء الى باريس من فيينا كى يكون مراسلا لجريدة (Neue Press) فى القضية المذكورة (٢٥) . فما أن جاءت السنة التالية الا وألف هرتسل كتابه الشهير (D'erJudenstaat) أو الدولة اليهودية .

وفى كتابه ، دعا هرتسل الى قيام دولة علمانية لا علاقة لها البتة بالدين اليهودى أو بفكرة العودة المعجزية ، الا أن صلة فكره كله بالتحرير والمشاكل التى أدى تحرير اليهود اليها واضح كالشمس . قال هرتسل : « اللاسامية المعاصرة يجب أن لا تخلط باضطهاد اليهود فى الأزمنة الغابرة ، ولو كان لها شىء من اللون الدينى فى بعض الأحيان ، ان تيار الكره الرئيسى لليهود من نوع آخر . ففى مراكز اللاسامية الكبرى ، نشأ الكره لليهود من جراء التحرير ، عندما فاقت الأمم المتمدنة الى عدم انسانية اضطهادها لليهود وتمييزها العنصرى ضدهم طوال القرون الوسطى ، جاء تحريرنا متأخرا عن أوانه . اذ لم يعد يكفى القانون العام لتحريرنا من الجيتو القديم ، ففى الجيتو « تطورنا وتقدمنا الى أن أصبحنا طبقة بورجوازية ، وعندما خرجنا من الجيتو ، أصبحنا منافسا خطيرا للطبقات الأوروبية الوسطى . وعليه ، وجدنا أنفسنا وقد دفعنا الى المعمعة دفعا . خرجنا محررين ودخلنا فى الطبقة البورجوازية نحارب من الداخل ومن الخارج . فالبورجوازية المسيحية لا تتورع قط للتخلص منا نهائيا ككبش فداء الاشتراكية التى يريدونها » (٢٦) .

وقال أيضا : « لعلنا نذوب فى الأمم الأوروبية وننصهر معها دون قيد لو تركونا وعافونا من الاضطهاد والملاحقة لمدة جيلين فقط . ولكن

---

(٢٥) Robert F. Byrnes, Anti-Semitism in Modern France. Vol 1, The Prologue to the Dreyfus Affair. New Brunswick, New Jersey : Rutgers University Press, 1950.

(٢٦) راجع كتاب هوتزبرج السابق ذكره (The Zionest Idea) صفحة ٢١٨ .

أنى لهم فبعد قليل من سعة الصدر والتحرير ، تتفجر عدوانة المسيحيين لنا من جديد . وكلما انصهرنا معهم ونجحنا في أعمالنا ، يتأذون لذلك ، فهم اعتبرونا منذ قرون أننا لا نصلح لعمل أو حياة . فهم على عماهم وعدم بصيرتهم وسوء نيتهم لنا ، أخفقوا فى ادراك هذه الحقيقة ان النجاح يفقدنا هويتنا ويمحى الفروق التى تميزنا عنهم . الضغط والاضطهاد فقط يرجعاننا الا ذاتيتنا ، عداؤهم هو الذى يوصمنا فى نظر أنفسنا باننا غرباء .. اننا أمة واحدة خلقها أعداؤنا بعدائهم لنا » (٢٧) .

وقال ماكس نورداو (١٨٤٩ ـ ١٩٢٣) متنكرا لفكرة الأورثوذكس بان العودة ستتم بشكل معجز وعلى يد مسيحى الهى منتظر . « الصهيونية نتيجة حركتين خارجتين عن اليهود :

الأولى : حركة القومية التى سيطرت على الفعل والشعور فى اوروبا اكثر من نصف قرن وجاءت مسئولة عن تاريخ العالم السياسى .

والثانية : اللاسامية التى أصاب شرها جميع اليهود أنى كانوا » (٢٨) .

وحتى فى أمريكا ، وهى التى تمسكت بمبادىء التنوير ووضعت دستورها عليها كاساس ، ولم تعرف الجيتو بل كان اليهود فيها أحرارا منذ أن دخلوها ، لم تخل من اللاسامية ، وان كانت اللاسامية فيها لم تبلغ درجة العنف والعداء المكشوف الذى بلغته فى أوروبا . ولنقرأ ما يقوله زعيم الصهاينة فيها ، الحاخام ابا هيلل سلفر ، فانه يكشف عن مخاوف اليهود من اللاسامية الأمريكية ، اذ قال سنة ١٩٤٤ : « لقد جعل العالم الجديد ممكنا لزمن ما أن ينصهر اليهود فى جسم الأمة

---

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
(٢٨) المصدر ذاته ، ص ٢٤٢ .

الأمريكية ويعرفوا أنفسهم كأمريكان . الا أن هذا تبدد ولن يعود فى غالبية الأحيان . فاللاسامية التى تعودنا عليها فى العالم القديم (أى أوروبا) معنا وستظل معنا الى الأبد ... من غير المتوقع أن تقـــوم الفاشية فى أمريكا . ولكن الأمريكان الفاشيين الذين سيبقون لا ساميين على ممر الدهـور سـيبقون معنـــا .. والحقيقة هى أننا نحن اليهود الامريكان ، نجد أنفسنا الآن فى مصاف اليهود فى شتى أنحاء العـالم من تشتيت وتهديد . وقد أخذنا الآن نشعر مـــع اخواننا فى العالم أن مصيرهم مصيرنا وأن لا غنى لنا عنهم ولا غنى لهـم عنـا ، بل وان هويتنا كلنا واحدة ، هى الهوية اليهودية (٢٩) .

وهكذا نرى أن العالم كله أصبح فى نظر اليهود ناقضا لمبـــادىء التنوير وآسفا على التحرير الذى سلبه الكثير من رخائه المادى واطمئنانه الى الدين والسياسة القائمة فى كل بلد ، بعد أن أشرك اليهود فى حياته وخرطهم فى صفوفه على قدم المساواة ، فجاءت الصهيونية ردا على هذا ونتيجة لخيبة أمل اليهود فى المسيحيين الأوروبيين الـذين أعطوا فندموا فأخذوا ما أعطوه عنوة فقتلوا .

* * *

٤ ـ الصهيونية والملل اليهودية المعاصرة :

لم يكن تبنى الملل اليهودية فكرة الصهيونية بنفس الســـــهولة أو السرعة ، وقد رأينا ما لبعضـها من مناقضـة للمبادىء الصهيونية ، فالصهيونيون لم يكونوا فى بادىء الأمر سوى أقلية ضئيلة فى أى حزب أو فئة . أما الأكثرية فكانت اما معارضة للصهيونية بصراحة أو غـــير مكترثة لها غير عابئة بدعايتها .

---

(٢٩) كتاب هوتزبرج (The Zionest Idea) السابق ذكره . ص ٦٠٠ ـ ٦٠١ .

وكان أول تحول تجاه الصهيونية هو الذى قام به بعض المحافظين . وسرعان ما تبنت الملة المحافظة كلها البرنامج الصهيونى وأخذت تدعو له بشدة . وبالرغم من هذا ، كان يرى المحافظون تناقضا بين دعوتهم الى التجنس بالجنسية الأمريكية والاندماج فى المحيط الأمريكى وبين المبادىء الصهيونية . ولذلك جعلوا الصهيونية فى بادىء الأمر أمرا ثقافيا لا سياسيا . وكأنهم فسروا وعد بلفور التفسير الثقافى والروحى الذى فسرته انجلترا بعد أن أصدرت التقرير الأبيض سنة ١٩٣٩ (٣٠) .

وبهذا التفسير ، استطاع الصهيونيون أن يندسوا فى صفوف المحافظين ويبثوا دعايتهم الى أن أصبح المحافظون كلهم يعطفون على الحركة الصهيونية فى فلسطين . وساعد هذا التحول ما آمن به المحافظون من مبدأ « كلال يسرائيل » السابق ذكره ، وما ركزه هذا المبدأ من توجيه واهتمام بالأمة الاسرائيلية فى العالم ، وما أقامه من صروح حول اجماع الأمة فى أى وقت لا سيما فى العصر الحاضر . ومن السهل أن يتحول مبدأ « كلال يسرائيل » الى برنامج سياسى يضم الأمة اليهودية بكاملها ويستهدف تحقيق مصلحتها وكيانها .

وكان الأمر خلاف ذلك عند الاصلاحيين والأورثوذكس : أما الاصلاحيون فقد حذفوا من مبادئهم فكرة أن اليهود قوم : « لقد لازمنا مبدأ أن اليهود ليسوا قوما ، فآمنا به ايمانا صادقا وأكيدا . ولقد قمنا عملا بهذا المبدأ ، بدفع الأعياد القومية اليهودية الى مؤخرة اهتمامنا

---

(٣٠) وهو التقرير الذى أوقفت بموجبه انجلترا انتقال الأراضى الى اليهود فى فلسطين مفسرة أنها قد أتمت تحقيق الوطن القومى اليهودى . بمعنى أنها أوجدت فى فلسطين كيانا روحيا وثقافيا لليهود . وأن هذا ما يبرىء ذمتها . اذ هى لم تتعهد بانشاء وطن قومى بمعنى دولة يهودية .

وحذفنا كل ذكر ودعاء بالعودة الى صهيون من أدعيتنا وصلواتنـــــا وطقوسنا » (٣١) ٠

وبالرغم من هذا الموقف المبدئى ، وجد فى صفوف الاصـلاحيين الربابنة جوستاف جوتهايل وبرنارد فلسنتال وستيفن وايز الذين دافعوا عن الصهيونية وجعلوا من أنفسهم أبواقا لها داخل صفوف الاصلاحيين ٠ وحاول هؤلاء وانصارهم جر الملة بكاملها الى المعسكر الصهيونى ولكنهم لم يفلحوا الا فى سنة ١٩٤٣ ٠ عندئذ وتحت ضغط الحرب العالمية الثانية وأخبار تقتيل اليهود على يد النازيين فى أوروبا ، استطاع الصهيونيون اقناع المؤتمر المركزى للربابنة الاصلاحيين باقرار أول قـرار ملائـــم للصهيونية ٠ ونص هـــذا القرار على أن لا ثمـة تناقض بين الصهيونيه والمبادىء الاصلاحية ٠

اما المجتمعات الاصلاحية ، فقد قرر مؤتمرها المنعقد سنة ١٩٣٧ ، بعد أربع سنوات من تولى هتلر الحكم فى المانيا ، بأن « واجب اليهود جميعا أن يساعدوا فى بناء فلسطين كوطن لليهود ، وذلك ليس بمحاولة جعلها ملجأ لليهود والمضطهدين فحسب بل مركزا للثقافة اليهوديـــة والحياة اليهودية الروحية » (٣٢) ٠ ولكن هذا القرار لم يفعل أكثر من ازالة معارضة الاصلاحيين للفكرة والبرامج الصهيونية ٠ فهو لم يدفـــع بالملة كملة الى المعسكر الصهيونى ٠ وحسب نظام (Congregationalism) المتبع فى الملة لكل مجتمع وكنيسة اصلاحية الحق فى اقرار ما تشـاء ، فبينما انخرط عدد كبير من الكنائس الاصلاحية فى صفوف الصهيونية ، بقى عدد مهم منها خارج هذا النطاق ٠

---

(٣١) The Hebrew Union College Journal, November 1896

(٣٢) قارن بين مقالات :

Reform Judaism : Essays by Hebrew Union College Alumni, Cincinnati : Hebrew Union College Press, 1949.

ولعل أهم فرع من الملة الاصلاحية الكنائس الداخلة فى المجلس الأمريكى للدين اليهودى المسمى (The American Council for Judaism) والذى يرأسه الحاخام آلمر برجر الشهير ، الذى ألف كتبا عدة ضد الصهيونية ، وهو لا يزال يعمل بنشاط هائل فى مكافحتها .

أما اليهود الأورثوذكس فقد انقسموا حول الصهيونية الى قسمين : قسم المنظمة المزراحية ، وهى التى تقبلت الحل السياسى لمشكلة خلاص اليهود بدل الحل المعجز على يد الاله . وقسم جمعية أو آجودات اسرائيل الذى أصر على أن خلاص اليهود لن يتم بطريقة السياسة وأن لا بد له من العمل المعجز الالهى . لقد أقر مجلس الربابنة الأورثوذكس مبادىء كلا الحزبين بالرغم من اختلاف نظريتيهما ، ومع هذا ، فالانقسام لا يزال قائما الى يومنا .

يميل الجيل الجديد الى المزراحيين فى تبنى الصهيونية كبديل للمخلص المسيح المنتظر . الا أن المزراحيين ، بالرغم من تفوقهم العددى على آجودات اسرائيل ، لم ينخرطوا حتى هذه اللحظة رسميا فى المنظمة الصهيونية الأمريكية . وهم يصرون أنهم يتعاونون معها فقط ، وأنهم ليسوا عليها .

وقد قام اليهود فى أمريكا قيام رجل واحد سنة ١٩٤٨ للضغط على حكومتهم بمؤزارة وتأييد الدولة المزعومة والتأثير على الأمم المتحدة لاقرار التقسيم وانشاء الدولة اليهودية . ففى تلك الآونة ، كانت الصهيونية لهم جميعا دينا ، ولكن حماستهم أخذت تفتر بعد أن قامت اسرائيل وبلغ أحط درجاته سنة ١٩٦٧ قبيل حرب حزيران . ومع أنه تبين للجميع قبيل نكسة حزيران ١٩٦٧ وبعدها مدى تصهين يهود أمريكا اذ كانت حماستهم أشد من حماسة ١٩٤٨ ، الا أن الحقيقة التى لامراء فيها هى أن حماستهم هذه المرة كانت مدفوعة من الحكومة الأمريكية التى أطلقت جميع وسائل الاعلام الأمريكى بالتهجم على العرب وتأييد اسرائيل .

ولا يمكننا أن نقول اليوم أن هذه الحماسة باقية بل على العكس ، فالظاهر هو أن الصهيونية كدين قومى لليهود خارج اسرائيل قد انتهى أمره . وهذا لا يعنى أن اليهود لن يساعدوا اسرائيل ، ولكنه يعنى بحق أن الشعور الدينى اليهودى أخذ يبحث عن أهداف أخرى بعد أن تحقق له حلمه القديم فى جعل فلسطين دولة يهودية من جهة ، وبعد أن اكتشف أن تحقيق ذلك الحلم لا يشبع كل ما فى الشعور الدينى من ضغط وأمل .

* * *